**طوابير**

*بقلم: سارة داوود*

8 فبراير 2023، في بيتي في مخيم الجليل

ثلجٌ على الأبواب، صقيعٌ ينخر في العظم، عاصفة شلّت المدينة عن الحركة، يخال لك أن البيت سيقتلع من جذوره ويطير مع صوت الريح في الخارج. وأنا ملفحة بالغطاء ومتقوقعة حول نفسي جنب المدفئة. حاجة ملحة للدخول للحمام، في مثل هكذا طقس أظن هكذا حركة لا تقل عن كونها جهاد. دخلت الحمام، مواسير المياه متجمدة، تقطر بعض نقاط المياه من الحنفية، صوتها كما التعذيب في السجون، وأنا أتجمد من البرد وأعد الثواني كي أخرج وأعود للدفئ.

لحظة، كأن هذا المشهد له مثيل مشابه في ذاكرتي، نعم هو، تذكرت. سمعت حديثًا قصيرًا عن مشهد مشابه حدثتنا عنه الحاجة زكية في لقاءٍ حديث كان معها حول النكبة وحول ما عاشته قبلها وخلالها وبعدها.[1]

الحاجة زكية في حمامات اللجوء، حمام واحد لمئات اللاجئين الفارين من الموت إلى الخيام. في بنت جبيل ومناطق أخرى لجأ إليها الفلسطينيون بعد النكبة، حمام واحد مشترك. مترٌ باثنين، شادر ثم تحول إلى زينكو يحبس صدى الصوت ويضج فيه كما الإناء الصدِأ، حمام كما العراء، لا أعلم كيف كان يصمد في وجه الريح والعواصف.

كما أنا في وضعي هذا، لكن المياه كانت في لجن وطاسة، وحيطان الحمام لم تكن إسمنتًا، لكن أنا الآن كما الحاجة وقتها، كلانا نموت بردًا، الفرق واحد بيننا: أنا لديّ الوقت بينما هي لم يكن لديها الوقت. الحمام وقتها كان فرصة، رفاهيّة محدودة الوقت، على اللاجئ أن ينتهزها ويستغل هذا الوقت، فإن طابورًا من اللاجئين في انتظاره خارجًا.

طوابير الحمام هذه، والمشهد هذا، ومشاهد أخرى مشابهة، كما طوابير الحمام التي كانت في مخيمنا قديمًا، طوابيرٌ كثيرة تذكرتها في لحظتها وقررت الكتابة عنها. خرجت فوراً، أمسكت قلمًا و ورقةً وبدأتُ الكتابة عن هذه الطوابير.

طوابير كثيرة أصبحت جزءًا من ذاكرة الإنسان الفلسطيني وجزءًا من ماضيه وحاضره، جزءًا من وجوده. طوابيرأعاشة، طوابير مازوت، طوابير أكل وشرب، طوابير قرطاسية، طوابير أغطية، طوابير ملابس، طوابير النكبة الأولى، طوابير التهجير من البيوت، طوابير الجثث وطوابير الجرحى وطوابير أخرى كثيرة.

طوابيرٌ طوابيرٌ طوابير تلاحقنا. صورٌ كثيرة لطوابير يعُجّ بها دماغي، طوابير رأيتها، طوابير عشتها، وأخرى شاهدتها على التلفاز، طوابير سمعت عنها، طوابير عاشتها جدتي وأخبرتني عنها. صورٌ وأصواتٌ من طوابير يختلط بعضها ببعض حتى أصبح حضورها مشوشًا في دماغي، بتُّ ضائعةً بينها، أيّها كان حقيقيّا ورأيته بأمّ عيني، وأيّها كان محض خيالٍ عشتها بعدما أخبرتنا الجدات عنها حتى أصبحت قصصًا حقيقية في ذاكرتي.

[1] زكية عبدالحليم، مواليد 1940، لوبية-فلسطين، مقابلة بتاريخ 2022/11/18، دار الوفاء للمسنين-مخيم الجليل، مقابلات أرشيف النكبة

أذكر إحدى الطوابير هذه، كانت جزءًا من طفولتي في مخيم الجليل. طوابير الأعاشة التي كانت توزعها وكالة الغوث (الأونروا) على اللاجئين الفلسطينيين في مخيمنا.

تدخل من بوابة المخيم، ثم تنعطف يسارًا، تمشي بضع أمتارٍ حتى تصل، تحديدًا حتى ترى اللون الأزرق، نعم هنا، زاوية على يسارك، هنا كانت توزّع مؤن الأعاشة.

أستذكر أيام التوزيع في هذه اللحظات، وضحكة عابرة أشعر بها، تترسم على أطراف شفتاي، أعلمها جيّدًا، ضحكة الاستهزاء هذه.. أضحك وأنا أفكر، ما هو مدعاة وجعِ الآن، كيف له أن يكون مدعاة فرحٍ سابقًا؟! الطبيعي عادةً هو العكس، ما أوجعنا سابقًا يبرد مع الوقت وقد يصبح النقيض. لكن في هذه الحالة، ما يوجعني الآن هو ما كان يفرحني سابقًا، في طفولتي.

أراني الآن، محمّلة بحقيبة ظهرٍ تقصم ظهر البعير، لا أعلم كيف لم تقصم ظهري! وفيها من الكتب والدفاتر ما يُعادِل نصف وزني، وأنا في العاشرة من عمري وعائدة من مدرسة الأونروا إلى بيتي في المخيم. إذا سلكت الطريق "الفوقاني" أصِل لمنزلي خلال دقيقتَين فقط، لكن طفلة جامحة فضولية مثلي لن تضيّع فرصة رؤية التوزيعات وطابور الأعاشة وإن كلّفها ذلك أن تحمل حقيبتها لمسافة ومدّة أطول، فأسلك الطريق "التحتاني".

أصِلُ ساحة المخيّم وأرى النّاس تتدافع لاستلام المؤن، وأقف وأراقب المشهد وتسعدني هذه المراقبة، لكن الرؤية تبدو ضبابيّة بين لحظاتٍ وأخرى. بياضٌ يغبّش الرؤية والوجوه، إنه الدقيق الذي يتطاير في الجو كلما قام عمّال التوزيع برمي أكياس الخيش المضغوطة بالدقيق، بعضها فوق بعض، مكوّمة كما الجثث. أراقب، وأرى رجلًا ذو لحيةٍ سوداء، استلم حصّته وأخذ بالرحيل بعدما أصبحت لحيته بيضاء من الدقيق، وأضحك عليه دون انتباهه، ضحكة الأطفال الخبيثة تلك، ويمضي الرجل، وأمضي أنا.

وطوابير أخرى كثيرة في ذاكرتي، منها طوابير المياه التي سمعت عنها قصصًا كثيرة في أماكن اللجوء في فلسطين وأخرى في أماكن اللجوء في لبنان. مع أن البلاد غنيّة بالمياه، كيف لها أن تبخل على أبنائها، كيف لمنابعها أن تشُحّ عليهم؟!

طوابيرٌ طويلة يصطف بها الناس (غالبًا الأطفال) عند بئرٍ أو نبعٍ أو بحيرة، كل يحمل "اللجن" في كل يدٍ وينتظر دوره ليأخذ حصته من المياه ويحملها عائدًا لأهله ليكفي كل منهم حاجته. مياه الشرب هي ذاتها مياه الطبخ هي ذاتها مياه الاستحمام هي ذاتها مياه الغسيل والشطف والتنظيف، وأيضًا قد يكون بعض منها شربة ماءٍ لبعض الأعشاب أو النباتات المنزلية التي زرعها أهل الخيام.

بالحديث عن طوابير المياه، أتذكر أحد هذه الطوابير التي سمعت عنها حديثًا وتعجّبت، فقد كانت مختلفة عن غيرها من طوابير المياه، هذه المياه كانت ممزوجة بدمِ الفلسطينيين، إنها مياه تل الزعتر. أحد القصص التي ترويها الحاجة عائشة محمد فرحات في مقابلة أُجرِيَت معها كنتُ قد شاهدتُها حديثًا في أرشيف النكبة: تسرد الحاجة ذكريات السنوات الأولى بعد النكبة من التهجير حتى الوصول إلى لبنان؛ حيث استقروا بداية في مخيم تل الزعتر.[2]

[2] عائشة محمد فرحات، مواليد 1922 ، الطنطورة-حيفا-فلسطين، أرشيف النكبة
https://libraries.aub.edu.lb/poha/Record/4501

ثم تنتقل لحياتها في مخيم تل الزعتر وتقول "آسينا بلبنان أكثر ما آسينا بفلسطين، شوفي قد ما صار بفلسطين بس ما آسينا فيها قد هون، شهرين محاصرين، شربنا الوحل، شربنا الدم، يروحوا الشباب تيجيبوا مي من البير يطخوهن ييجوا يوقعوا بالبير، يصفّي دمهن بالبير، يجيبولنا المي بالجلَنات...نعبي هالجلن ونجيبوا يطلع أحمر أحمر دم ونشربوا من العطش، شربنا وسخ القنوات، هاي المي اللي بالقنوات، نعبيها ونييجي نغليها ونشربها..ياما آسينا"
أقول، يعود الدم لأصحابه، ولكن ليس هكذا! ليس شربًا!

مع أني سمعت الكثير من الروايات الفلسطينية الموجعة، وغالبها كان أكثر إيلامًا من هذه، لكن لا أعلم لماذا وقف الكلام وانتهى عندي عندما أردت أن أعلق على هذه القصة تحديدًا. لذا سأكتفي بهذا القدر من الكلام عن طوابير المياه وأنتقل لطابورٍ آخر.

موجعٌ الكلام، أعلم، أعتذر عنه. ليست سوداوية، ليست سلبية مفرطة، ليست أوجه من الدراما والنكد، لكن لا يمكن للفلسطيني أن يكتب دون أن يمر على بعض جراحه، لا يمكنه أن يبتدع حياةً أخرى غير حياته، لا يمكنه أن يمحو تاريخه أو حتى أن يغيّر من ملامحه.

لكن ملامحه شاملة، فيها من الأسى كما فيها من الأمل، فبعد أن اتضحت ملامح النكبة و تمثلت في نفوسنا و واقعنا المشهود، كان لا بد من وجود بصيص أمل يبعدنا قليلا عن طوابير الذل؛ إنها طوابير الآلاف من المصلين في المسجد الأقصى الذين كان من بينهن جدتي ام عمار. في زيارة لها من 30 سنة، حفظتها في ذاكرتها مجسدة بأدق تفاصيلها، ترويها لنا دومًا، تتخيلها من جديد، مع ذات الانفعال، وكأنها تعيشها الآن وكأن شعورها هو ذاته حاضرًا في لحظات السرد هذه.

ننتظر هذا الحديث دومًا، نتجمع نحن الأحفاد حولها لنسمعه، لتملي علينا ما شاهدت وما تركت في نفسها التجربة من مشاعر وصور، ولا نمل هذا الحديث، في كل مرة تعيده وكأنها المرة الأولى، لنا ولها. تصفها جدتي، طوابير الانتظار للدخول للمسجد الأقصى المبارك، الثانية فيه كما السنة، الوقت يمر ببطئ، يموت، ونحن نموت لهفةً، إنها لحظة اللقاء الأولى، لقد كان حلم العمر، انه حقيقة الآن، تفصلنا عنه بضع أمتارٍ ودقائق قليلة طويلة وطوابير تفتيش من عدوٍ محتلٍ خائفٍ من مصلي أعزب لا يملك سوى الدعاء والإيمان في قلبه، لا يعلم المحتل أن هذا الإيمان أخطر عليهم من السلاح.

في هذه الطوابير تسمع وترى الكثير، في الوجوه والأصوات والأحداث. أحدها حدثٌ تكرر جدتي سرده دومًا لتنهي حديثها بجملة واحدة "هدول جبنا، بكل أسلحتهن بيخافوا منا..". سأروي القصة كما هي على لسان جدتي، تقول: "أول شي رحنا عالقدس كرمال نصلي بالمسجد الأقصى، بدنا نفوت واليهود واقفين عالباب. في طالب كان حامل شنطته حطها على جنب كرمال يفوت يصلي، بس اليهود كان الجبن والخوف معشش بقلوبهن لدرجة انو شنطة لطالب مدرسة استفزتهن. جابوا أشرطة لاسلكية وسحبوا الشنطة لبعيد واستدعوا قوات خاصة بالمتفجرات. نحنا ضلينا واقفين مكانا، بس اليهود صاروا ينادونا ع مطرح تاني ويقولولنا "كوم كوم" ورجعونا لبعيد. فتحوا الشنطة لاقوا فيها كتب وتياب للطالب. نحنا صرنا نضحك عليهن انو أديه هني خافوا وكانو جبنا واحنا ضلينا واقفين عادي".

لن أعلق على هذه القصة بأكثر مما قالته جدتي، كلامها اختصر الحديث، لنعلم وليعلم الجميع من هم أصحاب الأرض الحقيقيين، المشهد هذا وحده كفيل ليقول للعالم من هو المحتل والمعتدي والسارق.

بالحديث عن طوابير الأمل هذه، هناك طابورٌ آخر تذكّرته، حتى لا يقول عني القارئ "كتلة نكد" سأمر على هذا الطابور أيضًا. انه طابور الاستقبال، بل في الحقيقة لقد كانت طوابير استقبالٍ وليست طابورًا واحدًا. جمع الطوابير في الأفراح ومفردها في الأتراح إن كان له دلالة على شيء، فهو تذكير بأنا نحب الحياة ما استطعنا إليها سبيلًا.

طوابير الإستقبال هذه تحدث عنها جدتي عند دخولهم إلى قريتهم في حيفا، هي وجدي. تصف جدتي مشهد الاستقبال المهيب هذا: عشرات بل أظنها المئات من المستقبلين المهنئين بقدومنا، وكأن في قدومنا ريحٌ من ريح العودة، وكأنه مشهد مصغّر. الأقارب والجيران والأطفال والكبار وذويهم وأقارب الأقارب ومعارفهم، عرفنا منهم القليل ولم نعرف الكثير، لكن تعارفت الأرواح وجمعتنا هذه الفرحة كما تجمعنا الأحزان دومًا. هي وحدة الشعور، تراها في كل أوجهها تجمعنا وتقربنا. الزغاريد والأهازيج وزمامير السيارات، كل في الشوارع يحتفل بقدومنا وكأنها زفةٌ وليست استقبال.

تقول جدتي "حسينا حالنا كإننا عرسان جداد"؛ لا بل كانت فرحتهما أكبر من فرحة زفتهما الأولى عند الزواج، فهنا قد كُتبا زوجَين من جديد وزفّا كعرسانٍ على أرضهما. لا أظن أية فرحة أخرى في الحياة قد يمر بها الإنسان تضاهي هذه الفرحة، الحب والأرض، المعنى التمام والكمال الوحيد للإنتماء، الإنتماء للشخص والمكان والشعور.

بعد كل هذه الطوابير، أتخيل شكلًا آخر لها، النهاية مختلفة، النهاية لنا. النهاية هي طوابير التحرير طوابير العودة طوابيرالانتصار طوابير الاستقلال؛ استقلال فلسطين عن كلمة "محتلة" التي لازمتها في نشرات الأخبار وعناوين الصحف وكتب المدارس حتى القصص والحكايا. طوابير ذليلة لإجلاء المحتل حتى آخر جندي جبان عن أرض الوطن، عن أرضنا الحبيبة فلسطين.

هذه الطوابير مختلفة، في الوجوه والشعور والمسير، في سرعتها وشدتها ولهفتها، ستكون حتى وطأة القدم فيها مختلفة، وطأة قدم خفيفة لا يثقلها كاهل لازمنا كل هذه السنين. ثقل وطأة الأقدام في طوابير النكبة وانحناء الظهور وانكسار الأنفس، ستكون كلها ماضيًا نرويه لأحفادنا ونحن هناك طوابير على الأرض. طوابيرتتغنى بجمال سورعكا وأخرى تصطف لتذوق طعم برتقال يافا، وأخرى تتزاحم في الأسواق لتشتري زيتون جنين، وطوابير تستمتع بأمواج بحر غزّة وأخرى تتجمع في عطل الأسبوع عند بحيرة طبريا، وطوابير تتزاحم كل يوم جمعة لتصلي في مسرى رسول الله، أقصانا الشريف المحرّر.